آراء وافكار

—«»—

التفاؤل والتشاؤم[1]

« بكلمات اللغة »

من الناس من يتشاءم بكلمات اللغة فلا يرضى ان يستعمل منها في كتابته او خطابته الا ما كان لطيف الجرس . لذيذ الوقع في النفس . لكننا اذا أقررناه على تشاؤمه هذا ووافقناه على اطّراح كل كلمة من كلمات اللغة احتكم فيها بذوقه الشخصي — اضطررنا ان نكنس من بين سطور معاجمنا كثيراً من الكلمات في وقت نحن محتاجون فيه الى تنمية اللغة وتكثير سوادكلماتها : فاذا كنا لا نجوز استعمال الكلمات غير القاموسية من مولدة . ودخيلة معربة . ولا يمكننا ان نضع كلمات وضعاً جديداً ثم بعد ذلك كله أخذنا نتشاءم بالكلمات التي نشعر فيها ببعض الغرابة او الكراهة في السمع ونحكم ذوقنا الخاص في هذه الغربة او الكراهة — كيف يتيسر للغتنا ان تجاري اللغات الحية وتتسع دائرتها لمطالب الحياة الجديدة . فعلينا إذن ان نقاوم هذا التشاؤم اللغوي بتفاؤل لغوي مثله او أشد منه : فنتفاءل بكلمات اللغة . ونعمل على إحيائها مهما احسسنا لأول الامر بكراهتها في السمع . فان تداولها وتكرر استعمالها كفيلان بتهذيبها . وصقل خشونتها . والشرط الاصلي في جواز استعمالها مراعاة المقامات : اي ان يعرف الكاتب او الخطيب كيف يستعمل الكلمة وفي اي المقامات يجلسها .

فاذا أُوتي حظاً من الذوق اللغوي وعرف كيف يميز بين الكلمات . وما تصلح كل واحدة له من المقامات . راجت الكلمات التي كنا نعدها غريبة او متنافرة وحسن وقعها في الأذواق . وتعاورتها أقلام الكتاب وألسنة الخطباء : اذا لم يكن ذلك في كل موطن ففي مواطنها الخاصة . بها ولنضرب لذلك المثل الآتي :

---

(١) قرئت في احدى جلسات المجمع .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

اذا قال العرب (فلان سَبْط الشعر) أرادوا انه مسترسل الشعر غير مجعّده . و (سَبْط القامة) اي ممتدّها طويلها . واذا قالوا : (فلان سِبَطْر) كان معناه ايضاً الطويل الممتد القامة . فالراء في (سبطر) هي قطعاً زائدة في آخر كلمة (سبط) لاتحادهما في المعنى . وكما تكون الزيادة في آخر الكلمة تكون احياناً في اولها وهذا نحو اقشعرّ من (قشعر) فان قافها زائدة في اول كلمة (شعر) لان معنى (قشعر) قفّ شعره وانتصب .

ثم ان العرب اذا وصفوا الاسد بكونه (سِبَطْراً) حصل بعض التغيير في معنى الامتداد : ذلك لأنهم يريدون امتداده عند الوثبة على الفريسة . فامتداده في تلك الحالة هو امتداد جسمه او امتداد المسافة التي يقطعها .

واذا قالوا (اسبطرّ) فلان على وزن (اقشعرّ) أرادوا معنى الاضطجاع : لان المضطجع يمدّ بدنه على الارض .

ومن الادلة على ان الاسبطرار هو امتداد الجسم وانبساطه ماحكاه علماء اللغة قالوا : حاكمت امرأة صاحبتها الى (شُرَيْح) القاضي في هرّة بيدها . ومع المدعية درص هرة . ودرص الهرة ولدها الصغير (وكذلك ولد الأرنب والجرذ ونحوهما في الحجم كله يسمى درصاً) . فقالت المدعية : ان الهرة هرتي وهي أمّ هذا الدرص الذي بيدي . وقالت الاخرى كلاّ وانما هي هرّتي . ولما جاء دور الكلام للقاضي (شريح) فصل القضية بينهما على هذه الصورة :

أدنُوا الدرصَ من الهرة فان هي قرّت (اي سكنت) ودرّت (اي سال الدرّ من ثديها) واسبطرت (اي امتدّت على الارض متهيأة للارضاع) فالهرة للمدعية . وان هي فرّت وتقبّضت وازبأرّت (اي انتفش شعرها) فليست لها (لان الهرّة لا تهرب من ابنها الصغير عادةً) .

هذا هو معنى اسبطرّ الحقيقي اوالأصلي أعني امتداد الجسم . وضد (اسبطرّ) بهذا المعنى تقبّض وتكمّش وتقلّص واختنأ وتجمّع الخ .

ثم توسع العرب في (الاسبطرار) فاستعملوه في معنى السُرعة وأن يمضي السائر أمامه قُدُماً من دون ان يُعَرّج او ينثني : فقالوا : (اسبطرّت الإبل) اذا أسرعت .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وإنما سمّوا السرعة اسبطراراً لان المسرع يمتد جسمه بطبيعة الحال .

ومن استعمال الاسبطرار بمعنى السرعة قول عمر بن ابي ربيعة :

(قالت لها أُختها تعاتبها لَتُفسدنّ الطواف في عمر)
(قومي نصدّي له لِيُبصرنا ثم اغمزيه يا اخت في خفر)
(قالت لها قد غمزته فأبى ثم اسبطرّت تسعى على اثرى)

فقول عمر (اسبطرّت) يريد انها أسرعت وجدّت في الجري خلفه . ويروى (ثم اسبطرت تشتدّ في اثري) .

وليس في قول هاتين الفتاتين مايدعو الى الريبة او سوء الظن في اخلاق عمر وهو نفسه الذي يقول :

(إني امرؤ مولع بالحسن أتبعه لا حظّ لي فيه إلا لذة النظر)

بقي علينا قول عمرو بن معدي كرب الزُبَيْدي وهو من ابيات الحماسة :

(ولما رأيت الخيل زوراً كأنها جداول زرع أرسلت فاسبطرّت)

مامعنى قوله (اسبطرّت) وهل ضميره يرجع الى الخيل ام الى جداول الماء المناسبة بين الزرع ؟ وعلى كلٍ هل (الاسبطرار) هنا بمعناه الاصلي اعني امتداد الجسم ؟ فان الماء يمتدُّ على الارض والخيل تمدّ اجسامها وهي مسرعة — او بمعناه الفرعي : وهو الاسراع : فان الماء يسرع والخيل تسرع — كل ذلك جائز .

ومن توسع اهل اللسان في الاسبطرار ان نقلوا معناه من الامتداد الحسي الى الامتداد المعنوي من ذلك قول الحريري في احدى مقاماته :

(قد دفع الليل الذي اكفهرا الى ذراكم شعشعاً مغبرا)
(اخا سفار طال واسبطرّا) الخ

وضمير (اسبطرا) راجع الى السفار اي السفر فهو يقول ان سفره طال امده وامتد ولايخفى ان امد السفر وزمنه ليس امراً محسوساً بل معقولا .

و يقول قائل : ولكن ما الفائدة من تحليل كلة الاسبطرار وبيان اشتقاقها وطرائق استعمالها اذا كانت غريبة لايمكن اقتباسها في الكتابة والخطابة .

اقول بل ينبغي ان نحييها بالاستعمال بل نحيي ما كان اقبح لفظاً منها بشرط ان نعرف

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

كيف نستعمله ؟ وفي اي المواطن والمقامات ندخله ؟

مثال ذلك كلمة اذا ذكرتها للقارئ استقبحها وأنكر جوازاستعمالها . حتى اذاشرحت له طريقة الاستعمال والمقامات التي يجب ان تقع فيها أعجب بها . وعوّل على استعمالها من دون تردّد ولا نكير .

تلك الكلمة هي (المجاحشة) وهي في اللغة بمعنى المزاحمة وهذا المعنى إما ان يكون جاءها من مادة (الجحش) ابن الأتان فان الجحاش اذا أرسلت العراك زاحم بعضها بعضاً . وإما ان يكون جاءها من (الجحش) مصدراً بمعنى السحج اي قشر الجلد : يقال جُحشت فخذه أو ساقه اذا قُشِر جلدها : فمن يجاحش الآخر اي يزاحمه في امر من الأمور انما تكون مجاحشته له في أشد حالاتها حتى تصل الى حدّ ان يقشّر احدهما بدن الآخر فهو مبالغة في تصوير المزاحمة وفرط اللزاز .

هذا هو معنى (المجاحشة) في أصل اللغة ثم استُعملت في مطلق مزاحمة : بين الجحاش او غير الجحاش . نتج عنهـا قشر جلد وخدش بدن او لم ينتج شيء من ذلك . ولهذا لما رأوا ان الذي يدافع غيره عن نفسه تقع منـه مزاحمةٌ له سموا المدافعة مجاحشة فقالوا : جاحشَ فلانٌ فلاناً اذا دافعه وقاتله .

ثم توسعوا في الاستعمال فقالوا : جاحشَ فلان عن فلان اذا دافع عنه وحامى عنه . ومنه قولهم (فلان يجاحش عن خيط رقبته) اي انهم يحاولون الحكم عليه بالقتل وقطع العنق وهو يجتهد في المجاحشة والمدافعة عن نفسه بمختلف الوسائل .

نقول : ولكن مهما كان من امر اشتقاق كلمة (المجاحشة) ومهما كان من استعمال بلغاء العرب الأقدمين لها فالواجب في عصرنا هذا ان تموت موتاً ، اذ لايحسن ان يقال : فلان يجاحش في المحكمة عن فلان . ولا أن فلاناً أحسن المجاحشة في هذه الدعوى . ولا أنه مجاحش بارع كما يقال محامٍ بارع .

نعم لايجوز ان يقال ذلك جميعه ولا ان تستعمل كلمة (المجاحشة) في هذه المقامات لوجود كلمات غيرها تُغني عنها . وهي أليق بالاستعمال منها .

ولكن ماقول السادة الفضلاء في هؤلاء الذين يزاحم بعضهم بعضاً على أبواب الامراء . وكلٌ منهم يريد ان يتقدم على إخوانه . ويتبوأ المكان الأرفع من مجلس الامير وديوانه .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فهذه المزاحمة المعقوتة التي تقع من اولئك البلداء . على هذه الصورة السوآء برأى ومسمع من العامة والدهماء . أليست جديرة بان تسمى (مجاحشة) لا (مزاحمة) وان يقال عن اصحابها في معرض التهكم بهم والتعيير . انهم كانوا يجاحش بعضهم بعضاً على باب الامير .

لا جرم ان العلم الذي عرّف (البلاغة) بانها مطابقة الكلام لمقتضى الحال يجوّز لنا استعمال كلمة (المجاحشة) وادّخارها لمثل ما ذكرنا من المقامات او المناسبات .

« المغربي »

انه ترجمه عن النسخة العربية المطبوعة في المطبعة الملكية في تونس سنة ١٨٦٢ واسم النص العربي « واسطة السلوك في سياسة الملوك » والكتاب موجود منه نسخة في مكتبة المجمع العلمي التاريخي في مدريد .

مدريد : م . أسين

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net